المجتمع المصرى فى القرن التاسع عشر كما تراه صوفيا بول ولوسى داف - جوردن

بقلم: الأستاذة الدكتورة

عـــزة كـــراره

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

المجتمع المصرى فى القرن التاسع عشر كما تراه صوفيا بول ولوسى داف - جوردن*

بقلم : أ.د. عزة كراره

قرأت فى جريدة الأهرام الإسبوعية الإنجليزية بتاريخ ٦-١٢ نوفمبر ١٩٩٧، عن مجموعة من طلبة أكاديمية الفنون الجميلة بفينا أتوا إلى القاهرة لقضاء بعض الوقت فيها، ليس لزيارة الآثار والمتاحف كعادة السائحين وإنما ليخوضوا تجربة فريدة من نوعها، بل مثيرة فى نفس الوقت. إنهم يكوِّنون ما يسمى بورشة عمل متعددة التخصصات، بالاشتراك مع جامعتى القاهرة وحلوان، عنوانها «صور تخيلية للقاهرة». يسكن الطلبة فى فندق كلية السياحة بجوار المريديان، ومركز نشاطهم بيت الهراوى فى قلب مصر العتيقة، يأتون إليه بمفردهم، كل حسب مزاجه، إما سيرا على الأقدام بين الأزقة والحوارى وإما باستخدام طرق المواصلات العامة. الغرض من هذا المشروع هو أن يتعرف الأجانب على عالم يختلف تماما عن عالمهم من حيث تعدد الأوجه التاريخية والاجتماعية والأخلاقية وغيرها من الاختلافات العديدة، ثم يسجلون انطباعاتهم بالرسم أو بالكتابة، ليس كمؤرخين ولكن كفنانين من وجهة نظر فردية شخصية.

شعرت وكأن عجلة الزمان قذفت بى إلى أوائل القرن الماضى، التاسع عشر، لأرى إدوارد لين وغيره من الرحالة الأجانب يجولون فى مصر بحثا عن كل غريب وغير مألوف فى بلدهم، يسجلون ما يرون بالكلمة والصورة، وكثيرا ما يغلب عليهم نظرتهم الشخصية فيما يدونون فلا تبدو دائما صحيحة مطابقة للواقع.

* محاضرة عامة ألقيت فى الموسم الثقافى بكلية الآداب جامعة الإسكندرية فى العام الجامعى ١٩٩٧م - ١٩٩٨م

موضوعى ينحصر على التعريف بشخصيتين نسائيتين من بين الكثيرات والكثيرين الذين جاءوا إلى مصر فى خلال القرن التاسع عشر بحثا عن أشياء مختلفة. اخترت هاتين الشخصيتين بالذات لعدة أسباب أولها أنهما إمرأتان، واهتمامى الخاص هو بالرحالة من النساء، وأيضا لأنهما تميزتا عن سواهما، إذ أن كلا منهما عاشت فى مصر عدة سنوات واختلطت بالمجتمع المصرى وعرفته عن كثب، بالإضافة إلى أنهما تعلمتا اللغة العربية وذلك مكنهما من التقرب من الناس والتحدث معهم دون وساطة المترجم كما كان يحدث مع باقى الرحالة الذين يقضون فى مصر فترة محددة طالت أو قصرت. هاتان المرأتان هما صوفيا بول ولوسى داف – جوردن.

كانت صوفيا بول شقيقة إدوارد لين المستشرق المرموق صاحب كتاب «عادات وتقاليد المصريين المحدثين» الذى نشر فى إنجلترا عام ١٨٣٦ ولقى نجاحا منقطع النظير، فقد بيعت الطبعة الأولى بأكملها خلال أسبوعين من ظهورها، وبيعت ٦٥٠٠ نسخة من الطبعة الثانية بعد ذلك بقليل، وظل الكتاب حتى يومنا هذا أحد أهم المراجع لهذه الحقبة من تاريخ مصر أيام محمد على باشا.

تعلم إدوارد لين اللغة العربية فى ريعان شبابه وهو فى إنجلترا، وقرر أن يزور مصر – كما يذكر – «ليس فقط للتسلية وزيارة الأهرام والمعابد ولإشباع فضول عابر، ولكن لكى ألقى بنفسى بين شعب سمعت عنه روايات متناقضة، أريد أن أتبنى لغتهم وعاداتهم وملبسهم لكى أتمكن من دراسة أدبهم، إن رغبتى هى أن أرتبط ارتباطا كليا بسكان مصر من المسلمين». ولقد فعل هذا. وصل إلى الإسكندرية فى ١٩ سبتمبر ١٨٢٥ وهو فى الرابعة والعشرين من عمره واتجه لتوه إلى القاهرة التى طالما اشتاق أن يراها.

ارتدى ملابس أهل البلد من الأتراك، وأقام فى منطقة شعبية بجوار باب الحديد، ولم يختلط إلا بالمصريين، أو كما كان يطلق عليهم «العرب»، ومن على شاكلته من الأجانب أمثال بورخهارت وهاى وبيرتون، وتجنب كلية الاختلاط بمجتمع الفرنجة الآخرين. اعتنق إسم «الفقير لله الشيخ منصور» الذى صار يعرف به. أحب لين القاهرة حبا جما ولم يفتأ يشتاق لها ويحن للرجوع إليها بعد عودته إلى إنجلترا عام ١٨٢٨. اصطحب معه، بجانب حبه الشديد لمصر، عادات اكتسبها جعلته كما يذكر أحد أصدقائه «شرقيا حقيقيا» منها حبه للنارجيلة التى أصبح مدمنا لها، كما اصطحب معه أيضا جارية صغيرة تدعى «نفيسة» من سبايا حرب المورة، اشتراها وأهداها له صديقه هاى وهو فى مصر وجاء بها لين لتعيش معه ومع والدته. قاما بتثقيفها وتعليمها وأخيرا تزوجها عام ١٨٤٠ (لولا وجودها فى البيت وتعوده عليها ما كان تزوج البته إذ أنه كان منقطعا كلية لعمله وليس لديه من الوقت ما يتسع لمعرفة النساء). كانت زيارته الثانية لمصر عام ١٨٣٣ حتى ١٨٣٥ ثم عاد إليها ثالث مرة سنة ١٨٤٢ واصطحب معه فى هذه المرة زوجته نفيسة وأخته صوفيا بول وابنيها، ستانلى وريجينالد، وكانت والدته قد توفيت عام ١٨٤١.

انشغل لين فى هذه الزيارة الثالثة كلية بمشروع قاموس عربى – إنجليزى وكان دؤوبا فانكب على عمله بكل قوته يقرأ المصادر العربية التى يجلبها له الشيخ دسوقى ويساعده فى فهمها (انظر : أحمد أمين : الشيخ الدسوقى ومستر لين فى «فيض الخاطر»). لم يتسع وقته لدراسة المجتمع المصرى كما كان يفعل فى زيارتيه السابقتين، ثم إنه كان قد أكمل كتابه فى هذا الموضوع من كل الجوانب المتاحة له، لم ينقصه سوى ما ينتمى

إلى النساء فى أخص خصوصياتهن أى كل ما يتعلق بعالم الحريم. حقيقة لقد كتب عن المرأة فى الطبقات المختلفة، وعن عادات وتقاليد الزواج، وعن طرق المعيشة فى المنازل بما فى ذلك من ملبس ومأكل، ولكنه استمد معلوماته كلها من الرجال، كان ينقصه معرفة المرأة القاهرية من خلال عين امرأة مثلها. رأى أن شقيقته صوفيا يمكنها أن تقوم بهذه المهمة على الوجه الأكمل بإرشاد منه، وطلب منها أن تملأ الفراغات التى جاءت فى كتابه بأن تدون ما تشاهده وما تسمعه هى بنفسها، وما يجول بخاطرها بهذا الصدد. ترددت صوفيا فى البداية إذ أنها لم تكن قد خاضت تجربة الكتابة من قبل ولكن لين اقترح أن تتخيل أنها تكتب خطابات شخصية لصديقة بإنجلترا تصف لها حياتها فى مصر وذلك ليزيل عنها هيبة الكتابة للنشر العام. وفعلا بدأت تدون سلسلة من الخطابات لصديقة وهمية أو بالأحرى لأى امرأة إنجليزية يهمها أن تعرف شيئا عن مصر، هذا البلد الذى اكتسب أهمية سياسية وثقافية كبرى فى بداية القرن التاسع عشر.

عنوان الكتاب : «المرأة الإنجليزية فى مصر : خطابات من القاهرة من ١٨٤٢ إلى ١٨٤٦، بقلم شقيقة إ.و. لين مؤلف «المصريون المحدثون» أثناء إقامة معه فى هذه المدينة». هل كان تواضعا منها أنها لم تذكر اسمها على غلاف الكتاب؟ ذكرت اسمها فقط، صوفيا بول، فى نهاية المقدمة التى تشرح فيها ظروف كتابة مجموعة الخطابات، وفضل أخيها فى معاونتها بالرأى وباختيار ما يظنه هو صالحا للنشر. نشر الكتاب على دفعتين، جزء سنة ١٨٤٥، والجزء الثانى ١٨٤٦، ولم يعد نشره حتى الآن.

الكتاب يتضمن أربعين خطابا فى مجالات مختلفة، وغالبا ما ينفرد الخطاب بموضوع واحد، وقد يضم عدة موضوعات مترابطة، كما أن

موضوعا واحدا قد يتعدى الخطاب الواحد. تبدأ وصولهم إلى الإسكندرية في شهر يوليو ١٨٤٢ فتصف المدينة من نواح متعددة، ما تراه بعينيها، وما ذكر لها، وغالبا تكون الرواية المذكورة نقلا عن أخيها مثلما تفعل حينما تتحدث عن آثار المدينة كمسلتى كليوباطره ولم تكونا قد نقلتا بعد من موقعهما بجوار شاطئ الميناء الجديد، وعمود السوارى، وفنار الإسكندرية، والمكتبة القديمة. وهنا تروى القصة التقليدية عن حرق عمرو بن العاص لمكتبة الإسكندرية القديمة وذلك أيضا نقلا عن رواية أخيها المستقاة من المصدر العربى لعبد اللطيف البغدادى. تجول بناظريها من نافذة الفندق الذى يقيمون فيه، والمشرف على ساحة القناصل (المنشية الحالية)، ويبهرها المنظر الزاهى الذى تراه من تعدد أجناس البشر، من بدو وأتراك وعرب ونوبيين، بل ومن كل البلاد التى تحف بالبحر الأبيض المتوسط بأشكالهم وملابسهم المختلفة. وطبعا استرعى انتباهها منظر النساء المحجبات بمشيتهن الرشيقة وسحر عيونهن السوداء المكحلة التى يزيد من إبرازها إخفاء باقى الوجه. يصل إلى سمعها ضوضاء الطريق ولغط اللغات المختلفة التى تسود والتى يتخللها صيحات سائقى الجمال وهم يرددون دواما : «أوعه ... جواردا .... ساكن» بثلاث لغات، العربية والإيطالية والتركية.

يحز فى قلبها وهى تكتب أول خطاب لها ما تراه من تناقض بيِّن بين الطبقات الميسورة بما يرتدونه من ملابس غنية زاهية وبين الفقراء الحفاة بملابسهم الرثة، فى حين أن الأطفال حتى الكبار منهم فى حالة من العرى التام، وهذا المنظر يجعلها تتعجب كثيرا. تلاحظ صوفيا أيضا كثرة عدد المصابين بالعمى التام أو الجزئى وخصوصاً بين المسنين، ولكنها تضيف

أنها تأثرت جدا حينما لاحظت الرعاية والعناية التى يلقاها المسنون من الجميع. من أكثر الأشياء التى تثير الشجن فى نفسها، منظر الأطفال الصغار بأجسامهم النحيلة ورءوسهم المتدلية التى تنم عن ضعف شديد، وهى ترثى لأمهاتهم اللاتى يتحملن ألم رؤية فلذات أكبادهن تذبل هكذا أمام أعينهن.

ثم إنها تبدى أسى وحزنا لشدة فقر الطبقة الدنيا من العمال فى المجتمع المصرى الذى يجعلهم يبدون كسالى مهملين، ولكنها تؤكد أنها سمعت أنهم إذا أعطوا عملا ينجزونه بدون كلل وبصبر لا نظير له، وتُشبههم بالجمال فى قدرة تحملهم، مع الفارق أن الجمل قد يرفض أن ينهض إذا زاد الحمل عليه فى حين أن الرجل يتحمل أعباء فوق طاقته دون تململ أو كلل وكأن لا إحساس له.

تشكو صوفيا من أكوام القمامة التى تغطى مساحات كبيرة من المدينة تخفى تحتها ما يكون بها من آثار قديمة قيمة. تنهى خطابها الثانى بإبداء اللهفة لترك الإسكندرية التى كانت فى الماضى من أعظم المدن ولكنها لاتبعث فى النفس سوى الحسرة والأسى لما آلت إليه الآن.

لكى يصل جماعتنا المكونة من لين وزوجته وصوفيا وولديها إلى بولاق ميناء القاهرة، يجب أن يمروا فى ترعة المحمودية التى سُميت باسم سلطان تركيا حينئذاك، وتم حفرها عام ١٨١٩ بواسطة ما يزيد على ٣٠٠,٠٠٠ رجل، توفى منهم كما يقال، حوالى ١٢٠٠٠ خلال عشرة أشهر العمل، أغلبهم بسبب سوء المعاملة والإرهاق ورداءه الماء والطعام. وكانت معداتهم فى العمل لا تتعدى الفأس الذى يستخدمونه فى الفلاحة، وأيديهم يجمعون بها التربة لينقلوها فى مقاطف. بعد اجتياز الترعة ينتقلون إلى مراكب

شراعية تسير فى النيل مارة بالقرى على شاطئيه مثل مطوبس وفوّة وشبراخيت وصان الحجر (سايس القديمة) وكفر الزيات حيث كانت جموع الناس محتشدة فى طريقها من وإلى طنطا لحضور مولد السيد البدوى. طوال هذا الطريق تعلق صوفيا على كل شيء تراه فتذكر أن مطوبس وفوّة مشهورتان بجمال نسائهما، ولكنها تضيف أنها لم تشاهد هذا بعينيها، إذ أن المركب كانت تسير فى وسط النهر، وهى شخصيا ترى أن نساء الطبقات الدنيا عامة قبيحات المظهر جدا. تضيف أن فوّة مشهورة أيضا بوفرة وحلاوة مذاق الرمان بها. وفى صان الحجر تتحدث عن سايس القديمة، عاصمة الدلتا وتطيل فى سرد أقاصيص وروايات عنها، وتذكر أن احتفالات دينية كانت تقام فى هذه المدينة أيام الفراعنة على شرف الإلهة نيت، وتربط هذه الاحتفالات بموالد العصر الحديث حينما تأتى وفود غفيرة من الرجال فى مراكب من القاهرة وأماكن أخرى بصحبة الغوازى والراقصات والمغنين للاحتفال بمولد السيد البدوى فى طنطا، وتضيف بأنه يقال إن المشروبات الروحية تحتسى بحرية مثل القهوة !

هذا نموذج مختصر من كتابة صوفيا، لانجد فى هذا الاسلوب نظاما معينا فى الكتابة ولا منهجا واضحا مثلما نجد فى كتاب أخيها، ولكن هذا النوع من الكتابة له طرافته فى تلقائيته، وفيما يحتوى من معلومات عديدة مترامية الأطراف يمكن للقارئ أن يجنى منها ما ينفعه، وهناك شئ لكل مذاق.

لحظة وصولهم إلى بولاق تبدل صوفيا ونفيسة ملابسهما وترتديان الملابس الشعبية التى لا تظهر سوى الأعين ويمتطيان الحمير للوصول إلى مسكنهم. يخبرنا الشيخ الدسوقى أنه حينما كان يزور لين فى منزلها للعمل

معه فى المعجم، لم ير قط زوجته أو أخته إلا وهما ملتفتان بالحبرة.

تتحدث صوفيا عن المنزل الذى أقاموا فيه أولا وكان مناسبا جدا، ولكنهم اضطروا لتركه بسبب «عفريت» يسكنه!. ثم تحدثت عن مشاكل الخدم خصوصا الفتيات، وتشكو من قذارتهن وتتحسر على الخادمات فى انجلترا، ولكنها تمتدح الرجال من الخدم. وتذكر النوادر والطرائف التى تحدث فى الحياة اليومية في منزلها ومع جيرانها فتعطينا صورة طريفة للمجتمع المصرى فى حياته اليومية كما يبدو للغريب، وربما تذكر أشياء تبدو عادية فى نظر الشخص المصرى العادى فى ذلك الوقت ولكنها غريبة بالنسبة لنا الآن. من نافذة منزلها فى الحى الوطنى (العربى) ترى المواكب المختلفة التى تمر، مواكب العرس والمواكب الجنائزية، وتذهب متنكرة فى زيها الوطنى لتشاهد مرور مواكب المحمل والدوسة وتزور الجوامع والحمامات والمارستان الذى به المعتوهات من النساء. وتحدثنا كثيرا عن قلعة صلاح الدين وما تشمله من أبنية لا أثر لها فى يومنا الحاضر، وهذه إحدى مزايا صوفيا الكبرى فى كتابها فهى تذكر الكثير الذى ليس له وجود الآن، ليس فقط فيما يخص الحياة الاجتماعية والعقائد السائدة وقتئذ، ولكن أيضا بالنسبة للمبانى التى تهدمت واندثرت منذ ذلك الحين. إنها تصف قاهرة لا وجود لها الآن، قاهرة كانت لا تزال إلى حد ما تُمثل نهاية العصور الوسطى، قاهرة المماليك وألف ليلة وليلة.

فيما يخص المجتمع فكان حسب روايات الرحَّالة الأجانب، ينقسم إلى ثلاث طبقات بيِّنة، العليا طبقة الأتراك التى تنعم بالسلطة والثراء، وطبقة متوسطة من التجار الأتراك والمصريين الذين ينقسمون بدورهم إلى عرب أى مسلمين وأقباط، ثم الطبقة السفلى وهم الفلاحون، ومنهم أيضا العرب

والأقباط. فلما نرى فى روايات الرحَّالة كلمة المصريين، فهم لا يرون سوى العرب أى المسلمين والأقباط، وفى نظرهم لا يعتبر أقباط مصر مسيحيين حقيقيين، وكاتبة مثل صوفيا مثلا ترثى لحالهم، وترى أنهم حادوا عن الدين المسيحى الحق، بل وكثيرا ما تفضل المسلمين عليهم.

ولكن أهم ما تنفرد به صوفيا فى كتابها، ويجعلها تختلف عن باقى الرحَّالة من النساء، هو معرفتها الوثيقة بحريم أولى الأمر فى مصر من عظماء القوم. تعرفت على هذه الأسر بواسطة مسز ليدر، زوجة الراعى الدينى للكنيسة الإنجيلية فى مصر، وكان لهذه السيدة حظوة لدى سيدات الطبقة الراقية ربما لخصائص شخصية فيها، وربما لما كان للإنجليز عامة من مكانة خاصة لدى الدولة ومحمد على (أترك تفسير هذه الظاهرة للمؤرخين) ولكن هذه الظاهرة واضحة على الأقل فى خطابات صوفيا بول، فهى تشير دائما إلى أنها تُعامل معاملة خاصة كإنجليزية حينما تقابل سيدات علية القوم، كما أنها تذكر شيئا طريفا له دلالته وهو أنها حينما تزور الحريم العالى، ترتدى ملابسها الإفرنجية وليس الملابس الوطنية التى ترتيديها عادة، وذلك كما تقول لأن هذا المظهر كإنجليزية يجعلها تعامل ليس فقط كنظيرة لأشرف السيدات مكانة بل وأرقى منهن، كما أنه يجنبها ضرورة التواضع فى التحية بالطريقة المعتادة، وهى أن تنحنى باحترام وتخفض يدها اليمنى قبل أن تمس بها شفتيها وجبهتها، وهى تؤكد أنها لم تقم بهذه التحية سوى للسيدات المسنات اللاتى تريد هى أن تميزهن ! لا شك أن هنا نوع من الكبر والعجرفة. شىء آخر لا حظته وأنا أقرأ خطابات صوفيا هو أنها لا تصحب معها أبدا فى زياراتها للحريم العالى، زوجة أخيها نفيسة (الجارية السابقة) مع أنها تزور معها المساجد والأماكن الأخرى التى يذهبان إليها بالحبرة والبرقع.

كانت زيارات الحريم من ضمن «برامج» الأجنبيات اللاتى يزرن مصر والشام وكانت تصحبهن مترجمات مسيحيات، وبطبيعة الحال فى مثل هذه الظروف لم يكن الحديث الذى يدار سهلا وتلقائيا، بل كانت تغلب عليه الكلفة وغالبا لايتعدى المجاملات الجوفاء والملاحظات السطحية؛ لذلك جاءت روايات الزائرات مغرضة، لا يرين فى الحريم سوى كل ما هو قبيح وتافه. تقول هاريت مارتنو فى كتابها «الحياة الشرقية، حاضرها وماضيها» بعد أن زارت مصر والشام عام ١٨٦٤ : إن ما أثار الغضب فى نفسها وأحزنها حينما زارت حريما فى القاهرة وآخر فى دمشق هو الكسل والجهل والتفاهة التى تخيِّم على مثل هذه الحياة، النساء لا روح فيهن ولا عقل، وأغلبهن كما لاحظت يشتكين من عسر الهضم والتخمة، وترجع هذا إلى الأطعمة الدسمة العسكرية وقلة الحركة، وتنصحهن باستخدام حبل للوثب ! وفلورنس نايتنجيل التى زارت مصر فى نفس الفترة التى زارها القصصى الفرنسى فلوبير عام ١٨٤٩/ ١٨٥٠ تقول فى «خطابات من مصر» بعد أن زارت حريم سعيد باشا بالإسكندرية : «إن هذا القصر الفخم سوف يظل فى ذاكرتى مثالا نادرة من دوائر الجحيم»، وغيرهن وغيرهن.

أما صوفيا، فكانت تتحدث بطلاقة مع السيدات، ولهذا جاءت صورتها عن الحريم غنية بشتى المعلومات القيِّمة التى تعطى صورة للحياة فيها، من جوانب شتى، كما تسرد الأحاديث التى تدور بين النساء واهتماماتهن، تقول إن قلة منهن من تكتب وتقرأ، ولكنها صادفت أسرة معينة حيث تعلم الابن فى أوربا وبدوره علم إخواته البنات، وأن مكتبتهم تضم أعمال الشعراء الإيطاليين وأفضل ما كتب فى تركيا، وأنهن لا يقرأن فحسب، بل يستوعبن ما يقرأن. تروى حديثا دار بينها وبين بنات حبيب أفندى، محافظ القاهرة، عن بعض الأمور السياسية بين تركيا وبريطانيا وتبين اهتمامهن بهذا الشأن

ودرايتهن بما يحدث فى العالم خارج أسوار الحريم، ولكن مثل هؤلاء النساء بالطبع قلة. من طرائف ما تذكر أنها أبدت خلال حديث مع سيدة «عربية» سعادتها لأن ابنها الأكبر (ستانلى)، قوى البنية لا تتأثر صحته بالأمراض الطارئة، وفى الحال صاحت المرأة : «صلى على النبى ، صلى على النبى» أردفت صوفيا بالطريقة الشرقية «الحمد لله على صحة أسرتى» و «إن شاء الله تدوم»، ولكن صديقتها كانت تريدها أن تقول «اللهم صلى على سيدنا محمد» حتى تدرأ عن الصبى عين الحسود ولو كانت عين الأم ذاتها!

بالطبع نجد أهمية خاصة لما تذكره صوفيا عن زياراتها لحريم محمد على فى قصر الدوبارة والقلعة ومقابلاتها لسيداته أمثال نظلة هانم ابنته الكبرى وأرملة الدفتردار محمد بك التى، حسب صوفيا، تشبه أباها بشكل واضح فى الذكاء الذى ينبثق من وجهها، وخصوصا فى العينين بنظرتهما الثاقبة الفاحصة. تقابل أيضا زوجات الباشا اللاتى يلقبن باسم أبنائهن مثل «الهانم أم محمد على بك» الذى يبلغ من العمر تسع سنوات، وأرملة طوسون باشا وهى أم عباس باشا، وغيرهن، وتتناول صوفيا ومسز ليدر معهن وجبة الغذاء. فى هذه المناسبة تلقت صوفيا دعوة من إحدى زوجات الباشا إلى حضور حفل زفاف يقام فى القصر عما قريب، وتعتذر صوفيا لصديقتها الوهمية التى تراسلها، عن ذكر اسم العروس. لقد قيل لها، ولكنه لا يزال من أسرار الدولة المصرية حتى يتحدد ميعاد الزفاف. كثيرا ما تصيبنا صوفيا هكذا بالاحباط فهى مثلا تصف بدقة متناهية ملبس حريم الباشا والمجوهرات التى يتزيَّنَّ بها ولكنها تحجم عن وصف ملامحهن لأنها ترى أن فى هذا جرحا لحرمة الحريم ويتنافى مع اللياقة والأخلاق الكريمة ... خسارة ! وهى دائما مجاملة إلى أقصى حد، وتذكر فقط اللاتى يبهرنها بجمالهن وحسن منظرهن الأخاذ. أسفتُ جدا، لأنها فى مناسبة أخرى

تتحدث عن زيارة قامت بها إلى حريم «عربى» أعجبت فيه جدا بسيدة المنزل، بجمالها الرائع ولطفها وذوقها، وذكرت أنها زوجة لواحد من أهم شعراء مصر، ومع الأسف الشديد لم تذكر اسمه! مرة ثانية ... خسارة !

تأخر وصول الدعوة الرسمية لحضور حفل الزفاف بالقصر، يبدو أن هناك عائق، ولكن صوفيا تشعر بالحرج من السؤال عن السبب، ولكنها تضيف أن إحدى قريبات السلطان همست فى أذنها منذ بضعة أيام، بكل جدِّية أن سبب التأخير راجع إلى نقطة واحدة لم تحدد بعد، ألا وهى ... اختيار العريس!

أخيرا، فى خطابها المؤرخ ١٦ ديسمبر ١٨٤٥، وصلتها ثالث دعوة إلى حضور الاحتفالات بمناسبة زفاف زينب هانم، صغرى بنات الباشا، إلى كامل باشا، كامل بك سابقا الذى يشغل منصب الياوران والسكرتير الخاص لمحمد على، وقد منحه السلطان العثمانى رتبة الباشوية حينما علم أنه اختير ليكون صهرا لوالى مصر. كانت احتفالات الحريم فى القلعة حيث توجهت صوفيا ومسز ليدر، وكان الطريق إلى القلعة مزدانا بعدد لا حصر له من الثريات الزجاجية الجديدة بكل منها عشرة قناديل مدَّت بحبال عبر الطريق، وكذلك بطوله أعمدة ملونة، معلق بها مصابيح. أما ساحة القلعة فمدت فوقها ظلة مزركشة باللونين الأحمر والأبيض لتحجب وهج الشمس بالنهار كما أن الحديقة بدت فى أجمل منظر والمصابيح تتدلى منها مثل الفاكهة. بعد آخر مدخل، وصلا لساتر الحريم .... وهنا أترك صوفيا ومسز ليدر يدخلان إلى الحريم فى القلعة لتنعما بتسعة أيام وليال ملاح بمباهج عرس ابنة محمد على باشا والى مصر، فالمسرات كثيرة، والشرح بطول فحتى لقاء آخر، أسدل ساتر الحريم عليهما..

لقاؤنا الآخر مع رحالة فريدة أيضا من نوعها تتشابه فى بعض النواحى مع صوفيا وتختلف عنها فى نواح أخرى، هى لوسى داف – جوردن.

إذا كان لين وصفيا يصفان مصر وهى لا تزال إلى حد كبير تعكس أواخر العصور الوسطى التى بقيت معالمها واضحة حتى منتصف القرن التاسع عشر، فإن لوسى تصور مصر وهى تثب إلى التحضر الحديث الأوربى بقفزات مذهلة فى بعض النواحى، أدت بها إلى الخراب والتفتت فى نواح أخرى. صور لين وصوفيا عصر محمد على وصورت لوسى عصر إسماعيل ومن خلال كتاباتهم يمكن أن يتضح للقارئ الاتجاهات السياسية والاقتصادية التى كانت تسود فى البلد فى هذه الأوقات. وإن كان لين وصوفيا يصوران الحياة فى القاهرة ومظاهر التمدين الذى بدأت تغير من معالم المدينة، فإن لوسى تعطى صورة لانعكاس هذه التطورات فى ريف مصر، وبالذات فى أعالى الصعيد حيث كان إسراف إسماعيل باشا يظهر من جانبه السلبى.

جاءت لوسى داف – جوردن إلى مصر عام ١٨٦٢ للاستشفاء، فقد أصيبت بداء السل مما اضطرها إلى ترك أسرتها بحثا عن مناخ جاف دافىء يمكنها من تحمل هذا المرض العضال.

نعرف الكثير عن لوسى، عن نشأتها وحياتها فى إنجلترا قبل مجيئنا إلى مصر، فقد ولدت عام ١٨٢١ وكانت الابنة الوحيدة المدللة اللامعة الذكاء لأبوين ينتميان إلى مجموعة من كبار المفكرين الليبراليين الراديكاليين فى المجتمع الإنجليزى أمثال جون ستيوارت ميل، وجيريمى بانثام، وتوماس كارلايل، وسيدنى سميث، وماكولى. تأثرت منذ نعومة أظافرها بآرائهم ومعتقداتهم وظلت هذه النزعة المتحررة فى التفكير تلازمها طيلة حياتها.

كانت تجيد اللغتين الفرنسية والألمانية ، ومثل أمها كانت تقوم بالترجمة من هاتين اللغتين إلى الإنجليزية. أحبت وتزوجت السير ألكساندر داف-جوردن وهى فى الثامنة عشرة من عمرها، وكانا مضيافين وبيتهما «مفتوحا» لدائرة كبيرة من الأصدقاء ضمت شخصيات مثل ثاكارى، وديكنز، وواربتون، وكارلايل، وكنجليك، والشاعر تينيسون، وجورج ميريديث الذى وصفها فى شبابها بأنها «متألقة الجمال radiantly beautiful».

ظهرت عليها بوادر المرض فى نحو الثلاثين من عمرها واكتشفت أن تدخين السيجاريقلل من شدة السعال فكانت تمارس هذا النوع المبتكر من الدواء وهى جالسة إلى مكتبها تكتب أو ممتطية صهوة جوادها تتريض، غير مبالية لما لهذا العمل الشاذ من وقع على من يراها. وظلت دائما هكذا، تفعل ما تقتنع به غير عابئة لما يقوله الناس.

تركت مضطرة، زوجها وأبناءها الثلاثة لتقيم فى مصر مدة سبع سنوات من ١٨٦٢ إلى ١٩٨٦، قضت معظمها فى الأقصر مع زيارات متقطعة إلى القاهرة والإسكندرية حيث كانت تقيم كبرى بناتها بعد زواجها عام ١٨٦٠ من تاجر إنجليزى ومدير بنك بهذه المدينة. أحضرت لوسى معها وصيفتها سالى واستأجرت ترجمانا مصريا كما كان يفعل الأوربيون ليقوم بمهمة الترجمة، وليكون ايضا خادما ومرافقا لها. كان شابا إسكندرانيا يدعى عمر أبو حلاوة ظل وفيا لها طيلة السنوات السبع، وكان يجيد اللغة الإنجليزية، كما كان طاهيا ماهرا (وبالذات فى عمل القوزى المحشو بالفسدق، والحلوى بعسل النحل) وكان أجره ثلاثة جنيهات فى الشهر.

سحرتها القاهرة العربية وودت أن تقيم فيها ولكن مرضها ألزمها أن تسرع بالسفر إلى جنوب مصر، استأجرت، بمساعدة عمر، مركبا تدعى

«زينة البحرين» بها ريس وتسعة أنفار وصبى بمبلغ ٢٥ جنيها فى الشهر. أبحرت من ميناء بولاق ومعها خطابات تعريف لمختلف القناصل فى مدن وادى النيل، كما رفع علما بريطانيا وأمريكا على صارى المركب. كانت تعرف النيل من خلال ما كتبه هيرودوت وغيره من قدامى ومحدثين، ولكن سرعان ما اكتشفت أن القراءة شىء والمشاهدة شىء آخر. سحرها النيل وشعرت أنها تعيش فى الماضى السحيق، إذ لم تتغير الطبيعة، حسب قولها، بسمائها وحقولها وفلاحيها منذ ٥٠٠، ١٠٠٠، بل ٦٠٠٠ سنة ! توقفوا فى بنى سويف لشراء لحم وخبز وكانت لوسى تسير فى السوق بملابسها الإفرنجية ممسكة بمظلة وأمامها عمر وخلفها اثنان من البحارة فى يد كل منهما هراوة ضخمة. كانت النساء يتجمعن حولها ويطلبن منها باللغة العربية التى بدأت تفهمها، أن تدخل فى بيوتهن المبنية من اللَّبن، ليقمن بواجب الضيافة وكانت أحيانا تلبى دعوتهن، وإن اعتذرت كن يأتين لها بالخبز والزبد والحليب والتمر والبيض، وكانت الأيام تمر مثل الحلم. فى يوم توقفت المركب عند قرية بها كنيسة قبطية وشربت لوسى القهوة مع القسيس الذى كان يذكرها بأبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وتجمعت كل القرية وجلسوا القرفصاء حولها، والخراف والماشية أيضا تحاول أن تجد مكانا لنفسها بينهم. كانت لوسى، مثل كثير من الرحالة، تنظر إلى الأقباط بشىء من عدم الارتياح، فلا هم مسيحيون مثل الأوربيين، ولا هم مسلمون مثل العرب.

توقفت «زينة البحرين» عند الأماكن الأثرية وأعجبت لوسى بالمعابد كلها ولكنها تذكر أن أجمل شىء رأته فى حياتها كانت جزيرة فيلة. ولكن الآثار كانت على العموم بالنسبة لها شيئا ثانوياً فقد كان شغلها الشاغل، الناس حولها. أعجبت بالأقصر وقررت أن تقضى فيها الشتاء التالى بدلا من

الإقامة فى القاهرة أو التجوال بمركب فى النيل. فبجانب جمال الأقصر وجدت أن جوها الحار الجاف يناسبها صحيا وأن السعال المضنى كان ينتابها فى فترات متباعدة وأقل شدَّة، بالإضافة إلى أن فى الأقصر يمكنها أن ترسل وتتلقى الخطابات عن طريق تاجر مصرى يدعى مصطفى أغا آيات وهو ممثل لقنصليات بريطانيا وبلجيكا وروسيا، وكان قد سافر إلى أوربا ويتكلم الإنجليزية والفرنسية والإيطالية بطلاقة.

رجعت «زينة البحرين» إلى القاهرة وجاءت لوسى إلى الإسكندرية لتقضى بعض الوقت مع ابنتها لحين موعد سفرها إلى أوربا للقاء زوجها. ولكنها كرهت الإسكندرية ليس فقط بسبب عدم ملاءمة الجو لصحتها ولكن لأنها لم تتجاوب مع أصدقاء ابنتها وزوجها من المستوطنين الأجانب بعقليتهم الإمبيريالية، كانت الإسكندرية فى نظرها مدينة مُهجَّنة، تقول «لقد أزالت الأفكار والعادات الأوربية كل ما هو عربى، وما تبقى، أفسده الاختلاط» كما ألمها ترحيب الأوربيين بما فيهم ابنتها وزوجها وأصدقاؤهم بما يقوم به الوالى إسماعيل باشا من «إصلاحات» مكلفة أدت إلى ديون باهظة أرهقت الشعب بالضرائب على كل شىء يمكن تصوره، كما تطلبت عمالة لرصف الطرق وبناء الكبارى والسكك الحديدية وحفر القناوات، وخصوصا قناة السويس، كلها دون شك ضرورية، ولكن الثمن كان فادحا فقد استخدمت السخرة بأبشع مظاهرها لجمع الرجال من المدن والقرى ليعملوا مثل العبيد فى هذه المشاريع. تقول لوسى «لا جدال فى أن هذه المرافق العامة يجب أن تتم بأى ثمن كان، لاشك أنها سوف تأتى بالثراء، ولكن سوف يؤدى ذلك إلى القضاء على الشعب. » كانت نشأتها الإنسانية تجعل قلبها وتفكيرها ينحصران فقط فى الناس ومعاناتهم.

كانت لوسى ترسل خطابات كثيرة جدا إلى أسرتها، إلى زوجها وأولادها وإلى أمها، وكانت هذه الخطابات تضم فقرات مكتوبة بعناية ودقة، تصف فيها كل ما هو طريف عن البلد وأهلها وعاداتهم وأيضا ما يجيش فى صدرها من أحاسيس وغضب حينما ترى ما آل إليه الشعب بسبب سوء إدارة الدولة وتعسفها، كما احتوت الخطابات على فقرات شخصية بحته تتحدث فيها عن حالتها الصحية وغيرها من أمور الأسرة؛ وكانت والدتها تنقح هذه الخطابات وتختار ما تراه صالحا ليعرض على جمهور القراء، وبهذه الطريقة تم نشر كتاب «خطابات من مصر» عام ١٨٦٥ بواسطة دار مكميلان وسرعان ما نفدت الطبعة الأولى من السوق (١٥٠٠ نسخة) وقبل نهاية العام تم نشر طبعتين آخريين.

كيف عاشت امرأتان إنجليزيتان، واحدة فى سن الأربعين والأخرى فى الثلاثين، بمفردهما فى صعيد مصر منذ أكثر من قرن من الزمان، وليس معهما سوى ترجمان/ خادم إسكندرانى؟ إنه لمن دواعى العجب فعلا مدى الأمن الذى كان يسود البلاد فى القرن الماضى، وهذا ما يذكره دوما الرحالة. ومن المعروف أن سياسة الدولة كانت حريصة جدا على هذا وكانت العقوبات للمذنبين صارمة بل شديدة القسوة، وهذا ما نقرؤه ايضا فى صفحات الجبرتى.

رجعت لوسى إلى مصر بعد إقامة فى إنجلترا أنهكت قواها وجعلتها تيأس من الشفاء وتكتب لأمها «الفراق مرير ولكنه سوف يجنب الآخرين عذاب مشاهدة مرض متباطئ وموت لابد منه».

استقبلها ابنتها وعمر فى ميناء الإسكندرية وهما فى سعادة متناهية وفرحة للقائها، تقول «إن الشمس كانت تنهمر مثل المطر فى إنجلترا

وفرنسا وأن أصحاب المحال التجارية فى السوق كانوا يحيونها بالسلام ويقولون إن فراقها كان مرا والحمد لله أن الست رجعت».

سافرت لوسى مع سالى وعمر فى مركب بخارى حكومى ووصلوا إلى الأقصر بعد إسبوعين عانت فيهما الأمرين من البراغيث والفيران ولكن خصوصا من البراغيث! عند وصولهم فى ١٢ يناير ١٨٦٤، قابلهم بالترحاب مصطفى أغا الذى قادهم إلى ما تسميه «قصرها» وهو ما يعرف عادة باسم «البيت الفرنسى» الذى كان بناه هنرى سالت القنصل العام البريطانى، من طوب اللبن المطلى بالجير عام ١٨١٥ فوق الركن الجنوبى الغربى لمعبد الأقصر. وكان منزلا رحبا، حسب وصف لوسى، له جدران سميكة ونوافذ زجاجية وأبواب لبعض الغرف. باعه سالى للحكومة الفرنسية عام ١٨٢٠، وممن أقاموا فيه فرانسوا شامبوليون عام ١٨٢٩ والضباط الفرنسيون الذين جاءوا بعد ذلك لنقل إحدى مسلات معبد الأقصر الكبرى القائمة الآن بساحة الكونكورد فى باريس؛ كما سكن فيه جوستاف فلوبير وصديقه ماكسيم دى كامب عام ١٨٥٠. أزيل البيت وباقى قرية المعبد عام ١٨٨٥ حينما أمر ماسبيرو مدير مصلحة الآثار الجديدة، بإخلاء المكان.

تجردت لوسى شيئا فشيئا من ملابسها الإفرنجية حينما بدأت وطأة الحر تزداد، وكان آخر ما تخلت عنه الكورسيه. وتجردت أيضا من عاداتها وتقاليدها الإنجليزية وازداد اندماجها فى بيئتها الجديدة وعالمها المصرى. عاشت مع القوم وأحبتهم فأحبوها وحينما ظهر وباء فى القرية، لجأوا إليها لتطبيبهم بما لديها من خبرة أولية وصندوق سحرى به أدوية وعقاقير لم تبخل عليهم بها. وعرفت بأنها «حكيمة» الأقصر وفى يوم جاءتها امرأة تقبل قدميها وتشكرها لأنها أنقذت حياة ابنها الوحيد وتطلب منها معرفة اسمها

لتدعو لها فى صلاتها. شرحت لها لوسى أن معنى اسمها بالعربية «نور» ولكن حيث إن هذا الاسم يخص الله وحده لا يمكنها أن تلقب به. صاح رجل كان يقف بالقرب منهما: فى هذه الحال يصبح اسمك «نور على نور»، ومنذ ذلك الحين، صارت تعرف فى كل مكان بهذا الاسم.

إزداد جبروت إسماعيل باشا، وفرضت، لتمويل حفر قناة السويس وغيرها من المشروعات، ضرائب ابتزازية على كافة المحاصيل تقريبا وعلى الماشية والفحم والزيد والملح وغيرها من لوازم الحياة الضرورية. كانت لوسى وهى تطل من شرفة منزلها ترى الفلاحين يساقون بالكرباج إلى مراكب الحكومة لتنقلهم إلى حيث لا يعلمون وغالبا إلى غير رجعة . تقول «إن مصر ضيعة لسيد لا يعرف الرحمة ولا الشفقة، يسوق عبيده دون غذاء ودون راحة». وتتعجب حينما ترى الدهبيات المزدانة كالمعتاد، تحمل الزائرين من الأجانب لا يعلمون ولا يهتمون بما يدور حولهم من مآسى. تقول «إننى أشعر بالغربة حينما أقابل وأجلس مع الإنجليز، فقد أصبحت بحق بنت البلد». وتشكو أيضا من أهلها الذين لا يتأثرون بما تسطر فى خطاباتها من صيحات الألم لما هو حادث فى البلاد، وكأن أحدا لا يسمعها إلا إسماعيل باشا وعيونه الذين فطنوا لخطورة ما تكتب بعد نشر مجموعة خطاباتها عن مصر فى إنجلترا، وذلك لأن ما تذكره كان يسىء إلى اسمه وصورته فى بريطانيا وأوربا. ولذلك قرر تعقب تحركها واتصالاتها حين تكون بالقاهرة وأن تصادر خطاباتها من الأقصر. وسرعان ما أدركت لوسى ضياع خطاباتها التى ترسل بالبريد وسبب ذلك، فقررت ألا تستخدم البريد وأن ترسل خطاباتها مع المسافرين من الأجانب.

اشترى لها زوج ابنتها دهبية خاصة بها ثمنها ٢٠٠ جنيه، أسمتها «يورانيا» وجعلتها سكنا لها، وعند السفر تستخدم ريسا وطاقما من

فلاحين يضم ثمانية أو عشر رجال وصبى. كان عمر رفيقها الوفى بعد أن خلصت من سالى التى سببت لها بعض المشاكل، وكان يرعاها ليل نهار عين كلل، وذات مرة حين اشتد عليها المرض واعتقدت أنه قد وافاها الأجل المحتوم، أنقذها عمر كما ظنت بأن عالجها باستخدام كاسات الهواء. وفى القاهرة أخبرها طبيبها الإنجليزى بأن رئتيها ملتهبتان بشدة، وكان يزورها مرتين فى اليوم بينما يرعاها عمر ويمرضها طول الوقت. كما أتى بشيخ من الأزهر يقرأ القرآن على باب غرفتها.

أمضت باقى سنوات حياتها القليلة فى مصر فى معاناة متصلة سواء بسبب نوبات مرضها أو بسبب انفعالها لما يعانيه الفلاحون من قهر وعسف تحت وطأة حكم إسماعيل ومشروعاته. وبمناسبة افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩، حضر إلى مصر ولى عهد بريطانيا ابن الملكة فكتوريا وزوجته، وكان على علم بأمر لوسى واستدعاها لمقابلتهما ولكنها اعتذرت لاشتداد المرض عليها وكانت عندئذ فى أسوان، فلم يتردد الأمير فى أن يسارع وزوجته لزيارتها. فى هذه المناسبة طلبت منه أن يلحق عمر بخدمته كمترجم بعد موتها، ووعدها الأمير بتحقيق رغبتها.

أيقنت لوسى أن نهايتها قد اقتربت وقررت الذهاب إلى القاهرة عن طريق الأقصر، البلد التى أحبتها وتعلق بها أهلها. حاول القاضى أن يقنعها بأن تظل معهم وأن تموت بينهم ووعد بدفنها فى مقبرته بين أهله. احتشد أهل الأقصر عن بكرة أبيهم على شاطىء النيل يودعون «نور على نور» وهى ترحل عنهم وأغدقوا عليها هداياهم على طريقتهم الريفية من خبز وزبد وجبن وبيض وسمك وطيور وكبش. وبصعوبة حملها عمر لشدة ضعفها وسط الزحام إلى داخل الدهبية.

رست الدهبية فى حلوان وظلت لوسى طريحة الفراش يرعاها عمر وخادمة إنجليزية والمراكبية حتى توفيت فى صباح يوم ١٤ يوليو ١٨٦٩. وأصر عمر أن تدفن فى نفس اليوم بكفن كان قد أحضره كما أوصته، كما جاء بشيخين لقراءة القرآن أمام غرفتها. حمل النعش طاقم المركب على أكتافهم إلى مثواها الأخير فى الجبانة المسيحية وقام بمراسيم الدفن الدكتور جارنت أحد المبشرين الأمريكيين.

هذه ملامح من تجارب امرأتين إنجليزيتين أقامت كل منهما فى مصر سبع سنوات، ولمست كل واحدة منهما جانبا مختلفا من المجتمع المصرى فى فترة حاسمة من تاريخ مصر الحديثة، وفى تجربتيهما نبع ينبض بالحيوية من انطباعات شخصية مباشرة يمكن أن يستقى منه دارسو التاريخ الاجتماعى مادة قيمة تفسر مواقف وتطورات كانت تحدث فى المجتمع المصرى كما عرفته كل من صوفيا بول ولوسى داف – جوردن.